ربعي المدهون

اعتقال ذاكرة مواطن

وحدها كانت البناية ... « عندما سقطت من الشرفة ضحكة لعوب ، وصفعت وجهه بقسوة ، فانفتل في وهج غضب اجتاحه سريعا ، قفز الى الرصيف الآخر ، ثم وجد نفسه ينتصب بالباب :

عارية تماما في السرير ، فيما عدا أجزاء من جسدها كانت تختفي للحظات ، عندما تمر يد الجندي ، وتترك بصمات واضحة عليها ... ثم هوت يده بقوة . فاهتز البيت تحت ارتعاش صرخاتهما. وفجأة ، ران صمت مخيف ، اذ خمدت انفاسهما ، كانت يده لا تزال تقبض على السكين ، ثلاث طعنات او اكثر ، لا يذكر ، وكل ما يعرفه ، انه ألقى بجثة العشيق ارضا ، ثم استدار نحوها واخذ يقطع ساقها اليمنى عند نهايتها قبل ان يحيله الى خيوط لحمية ممزقة .

— ١ —

وحدها كانت البناية تقف ، زواياها الاربع تعلقت باعناق الارصفة تماما كما فعلت قدماي في ذلك الوقت . كان الشارع صامتا على غير عادته ، وقد اختفت منه الضحكات التي اعتادت الشرفات تبادلها في مثل هذا الوقت ، ولم يكن الليل قد تسلل بعد ، غير ان نسمة رطبة ، عبرت الشارع خلسة ، عادت بعد قليل تحمل بردا ملحوظا ، ثم .. لا ادري لماذا تحولت الى موجات صقيع متتالية ! وفي الحال شددت طرفي معطفي الاسود الى صدري جيدا ووقفت انتظر . وفجاة تساقط مطر غزير على رأسي ، وسبح بين شعيراته قبل ان يغادر اطرافها الى وجهي ، ويتسلل باردا ليستقر تحت ياقة قميصي الابيض . « سقطت اكف ثلاث على جسده من أعلى ، اثنتان تعلقتا بكتفيه ، وتشبثت اصابع الثالثة بياقة قميصه من الخلف ، وسمع صوتا هامسا :

— لا تتحرك !!

رفع عينيه سريعا الى أعلى ، شاهد ابتسامة تموت على شفتي زوجته التي ما ان لمحته في تلك اللحظة ، حتى تراجعت مذعورة . وفي لحظة سريعة غامضة ، تلاشت الاشياء من حوله » . خطر لي ان اقطع الطريق الى الجهة المقابلة ، انزلت احدى قدمي عن الرصيف ، لمست الماء وقد غطى وجه الطريق ، أوشكت على نقل القدم الاخرى ، غير اني تراجعت ، عندما انزلقت عجلات سيارة مرت بسرعة ، ورشقتني بالماء المتسخ . عدت لاتقدم من جديد ، فتبينت انها تركت وراءها ساقا بيضاء دامية . خطوت بضع خطوات نحوها ، واخذت قدماي تغوصان في الماء الموحل ، حتى صار يتسلق اطراف سروالي ، ويعبر جسدي ممتزجا برعشة باردة ... واصلت التقدم باهتمام حتى صرت على بعد خطوتين من الساق ، وعندما توقفت لاحدق فيها ، شاهدت بوضوح ، خيوط دم تسبح نحوي ، تراجعت الى الوراء ، غير انها تابعت تقدمها ، وصعدت حذائي ، ولامست اطراف سروالي . « ثم افاق من غيوم تفكير اجتاح سماء رؤيته ، عندما صحا تماما من نوبة الم غمرت نفسه للحظات . تحسس ملابسه باطراف اصابعه فالفاها جافة تماما ، وعندما نظر الى حذائه ، لم يعثر للدم على اثر ، رفع كفه اليمنى الى جبهته ، ثم هبط بها برفق وتحسس ملامحه ، الى ان استقرت كفه أسفل عنقه ، فتلمست اصابعه حبات عرق لزجة كانت تستقر هادئة تحت ياقة قميصه . جال ببصره فيما حوله ، كانت ثمة غرفة صغيرة ، يقبع في احد اركانها ، ومن حوله تجمعت ادوات مختلفة ، شبيهة بتلك التي تعلق على جدران المسالخ ، قال في نفسه : اذن ستبدأ الجولة الاولى بعد قليل !

— ٢ —

ضوء غبي قاسي سقط في عيني . صراخات امراة يعتصرها الم عبرت اذني ، سمعتها تتردد في اعماقي بوضوح... ايقنت انها صرخات امرأة بترت ساقها للتو . (نظرت مرة ثانية الى الارض المكسوة بمياه الامطار ، شاهدت اللحم ممزقا في خيوط متعرجة ، يتدفق الدم من نهاياتها بلا توقف . رفعت راسي الى اعلى ، شيء ما هبط على جسدي ، ومن جديد صمت عن الرؤيا ، وعن الحركة ايضا) .

« وافاق على يد تهزه بعنف ثم تبتعد ، ودخل المحقق ، وهو ضابط شاب في مقتبل العمر ، اسمر الوجه ، بدوي الملامح ، قال :

— ما اسمك ؟

— يونس ... يو..نس ، عبد الله..تاح ش ش ش حاته .

— مهنتك ؟

— عا ... مل

— ايـن ؟

ـ قلت ذلك ، في المادتي الاولى ! »

« وذكرت يا سيدي ، انني رجـــل اعشق الضحكة العابرة ، والمقيمة على الشفاه ، والراجفة ، والوائقة ، والوجلة ، والهادئة ، والباردة ، والدافئة ، والاعتباطية ، والتي خطط لهـــا من قبل ، والنزيهة ، والمخادعة ، والتي تاتي دون قصد ، وكل ابتسامة تؤكد لي ... » فهل تعفيني من التكرار ؟!

ـ اذن قل لي ! (رفعت راسي نحوه) ما هي علاقتك بمحمـود خالد السوافيري ؟

ـ صديق !

ابتسم وهو يهز راسه ، وكذا فعل الجنود الذين احـاطوا به ، وكانوا جميعا من رجالات السجون .« ومضت فترة صمت قصيـرة ، لم يسالني خلالها ، وبدا لي وكانه يبحث عن مدخل آخر لاستجوابي » ، وتواردت على خاطره افكار شتى وتدفقت في حرارة وعنف .

ـ ٣ ـ

محمود خالد السوافيري

وقف «محمود في نفس المكان الـــذي وقف فيه يونس قبيـل اعتقاله . وضع اصبعين في فمه ، واطلق صفيرا حـادا . (ابتسـم له يونس ولوح بيده ، وكانت زوجته تقف الى جانبه في الشرفـة ، وبعد لحظات استدار يونس وزوجته ، واختفيا داخل البيت ، حيث بقيت الزوجة ، بينما هبط يونس لمقابلة صديقه على الرصيف فـي مواجهة البناية ، وعندما تم ذلك نظرا معا الى الزوجة ، وكانت قـد عادت واطلت من الشرفة ، فوجداها تلوح بيدها مرحة) غير ان احدا لم يطل ، وبقيت الشرفة فارغة ، فكرر ذلك مرة اخرى دون جدوى . (شيء ما قد وقع !) قالها في ذاته ، وانطلق يركض نحـو البيت ، دخل البناية ، وارتقى السلالم باقدام لاهثة ، الى ان توقف امـــام شقة يونس . كان الباب «مفتوحا على مصراعيه ، ومن خلاله استطـاع ان يرى قطع الاثاث متناثرة في فوضى غريبة .

شريفه ... شريفه .

صاح بصوت يوشك على الاختناق ، الا ان احدا لم يجبـه ، فعاد ادراجه وهبط السلالم قفزا ، وما ان احتواه الشارع ، حتـى فوجيء بشريفة تركض نحوه ، متناثرة الملامح شاردة الذهن ، صاحت :

ـ محمود !

ـ شريفة ! اين كنت ؟ ما الذي جرى ؟ تكلمي !

ـ لا شيء ، تعال ... اصعد معي . تركت الباب مفتوحا .

ـ اذن فقد اخذوه «معهم ! اسمعـــي ! اعطني مفتاح البيت ، واذهبي في الحال الى بيتنا ، وانتظريني حتى اعود .

ـ ٤ ـ

(هذا الصباح جاء غريبا بكل تفاصيله ، هكذا قدرت في بدايـة الامر ، اذ فتح باب زنزانتي ، والقى الي احـــدهم باحدى صحف الصباح ، فاستبشرت خيرا بذلك ، ستطالع اخبار الدنيا ، غير انـي سرعان ما انكمشت على نفسي وادركت سبب هذا التحول في المعاملة :

* القبض على زوجة يونس عبد الفتاح تمارس الدعارة
* الزوجة تمضي ليلة كاملة ، في احضان المحامي المعـــروف محمود خالد السوافيري .

وبعد مرور اسبوع على هذا الحادث ، عثرت على عنوان بارز :

* العثور على شريفة يونس قتيلة امام البناية التي تقيم فيها ـ رجال الامن يبحثون عن سافلها اليمنى ، التي بترهـــا القاتل !

ثم اختفت الصحف من حياتي طيلة المدة التي قضيتها فـــي السجن فيما بعد).

وفجاة عاد المحقق يقول :

ـ تعرف يا يونس ما فعله محمود ؟!

ـ . . . . . .

ـ قد لا تصدق انما يمكن ان تكرر ما فعـــله ، وامامك ايضا . يا علي : احضروها حالا (خبر الصحيفة كاذب من اساسه) انـــه لا يصدق ان هذا ممكن جدا ! (لكنه لم يفعل !) غير ان الجندي تحرك كدمية آلية ، وذهب لتنفيذ مهمته ، بينما عاد الضابط يسأل مـن جـــديد :

ـ ما هي علاقتك بمحمود ؟

ـ قلت مجرد صديق !

ـ وما معنى ان تعثر على ممنوعات ورسائل مذيلة بتوقيعك ؟!

ـ . . . . . .

ـ نعم ، عثرنا على كل ذلك في ذات البيت الذي نامت فيه ... (اكتست شفتاه بصفرة ماكرة) ... اسمع ! «محمود هنا ، وعلى بعد خطوات قليلة ، لقد ادلى باعترافات كاملة ، ويحسن بك ان تعتـرف قبل ان تحضر !

ـ من ..؟

ـ زوجتك طبعا !

(دخلت الشمس مخدعي دافئة . دخلت زنزانتي خائفـة . في ذلك المساء الناعم كالهمسات . في ذلك الوقت المتسخ بلحظـــات الاعتقال . راحت تنزع ملابسها قطعة قطعة ، وترميني بها مازحة ، حتى اكلت كلها من جسدي ، كل آلات التعذيب بلا استثناء . ولما صـارت زوجتي عارية ، صحت بها :

ـ لم اعرف جسدا كهذا يا شريفة !

وصرخت في وجوههم :

ـ لم اعرف قتلة «مثلكم !

تقدمت مني تحمل ابتسامة راضية . وتقدم مني كشر الوجـه ، ياكل باسنانه الحادة طرف شفته السفلى .

قالت بعد ان احاطت عنقي بذراعيها :

ـ لو سمعك احد ، لما اعتقد انك زوجي !

ثم عانقتني بقوة واضافت :

ـ كانك تراه للمرة الاولى !) .

ورد الضابط بقوله :

ـ كانك لا تعرف شيئا . بل ولم تر شيئا . اذن سنريك !

اتت ، او على الاصح ، جاءوا بها . في مقلتيها حملت الدموع ، وفي حدقتيها وهج النار ، وفي صدرها صرخات مكتومة . كان احـد الجنود يمسك بها من ذراعها اليمنى ، عندما اوقفها في مواجهـــة يونس ، بينما عقد الضابط ساعديه على صدره ، وصاح بلغة آمرة

ـ اعترف .

ماتت في أعماق يونس صرخة قوية معذبة . ماتت تحت الاشرطة اللاصقة التي أغلقوا بها فمه ، زيادة في التعذيب ... وانتظر الضابط أن يهز يونس رأسه فيأمر الجند بنزع الاشرطة ، ويدعه يتحدث ، ويتلو أسماء عديدة طوتها ذاكرته . الا ان يونس لم يفعل ، بل ابقى رأسه مرفوعا .

رمق الضابط الجندي بنظرة متفق عليها . وفي لحظة خاطفة ، جزء من قماش فستان شريفة عند الصدر أصبح بين أصابع الجندي ، انتفض ثديها الايسر ، وارتجف عدة مرات قبل ان يخمد حزينا ، يحدق في عيني يونس :

ثديها صاح : اعترف
شرفه صاح : اعترف
الجندي كرر : اعترف
كرامته رجته : اعترف
الضابط صرخ : اعترف
رجولته زعقت : اعترف

الزنزانة ، الضعفاء ، الفاشلون ، التجارب الفاشلة ، الانتهازيون ، الضابط ، المخبرون ، الالم ، التعذيب ، جسده ، الموقف :

اعترف . اعترف . اعترف ....

ظل يونس صامتا ، يرقب وجه زوجته ، وبقيت الدموع لغتهما الوحيدة للحظات قصيرة ، ارتعش بعدها جسده بقوة ، داخل القيود ، وازداد توترا مع ضغط القيود على اعضائه ، لكنه خفض رأسه ، ثم رفعه وظل صامتا لبرهة ، صاح الضابط بعدها بعصبية :

ـ جردوها من ملابسها !

« عندما تم ذلك أمام عيني ، شعرت بهم يتسلقون جسدها بعيونهم ، يصعدون اللحم الصديق بأقدامهم الصخرية ، يحفرون عليه بصماتهم . ومنذ تلك الحادثة ، قررت قتلها ... وفعلت ، لا زلت أصر على ذلك ، ولا زلت اذكر كيف مررت السكين على فخذها عند نهايته ، وكيف مزقت اللحم خيوطا رفيعة ، حتى اغرقتها في بحيرة قانية » .

ـ ٥ ـ

صدر قرار بالافراج عن يونس بعد الفشل في ارغامه على الاعتراف .

ـ ٦ ـ

« نور غامض مبتور ، تسلل الى زنزانتي ثم اختفى وعاد ومر على وجهي في آخر يوم .. وطيلة فترة السجن ظلت شريفة تصرخ في أعماقي . قتلتها ، لا أنكر ذلك ، بل لا يمكنني تصور عدم وقوعه ! أليست هي التي أذلتني في جسدها ، أنها صاحبة الساق المبتورة ، والصراخ المتواصل ، هي لم تصرخ أبدا لكنني سمعتها تفعل ، وانا اقف امام باب السجن الكبير . لم أشعر بخروجي المفاجيء ، لكنني احسست بأنني تغيرت . استشعرت شيئا بين قدمي ، كان بركة ماء صغيرة . وفجأة احسست بدوار قاسي وانزلقت احدى قدمي في البركة » فشاهد خيوط الدم تمضي ببطء شديد وتصعد حذاءه لتلامس اطراف سرواله .

ـ ألا زلت تقف هنا ؟ ألم يفرج عنك ؟ هيا .. هيا !

انتهره جندي يحرس بوابة السجن ، وكان يونس قد أفاق لتوه من غيبوبة قصيرة . استدار ، حمل قدميه ومضى .

وهناك في نفس المكان الذي سقطت فيه الاكف على جسده من أعلى وقف قليلا ، تطلع نحو البناية بوجل ، ثم رفع رأسه الى الشرفة ، وهناك شاهد شريفة تقف وتلوح بيديها بحرارة .

بيروت

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	آلان بيتون	الشوارع العارية	فاسكو براتوليني
زوربا	نيكوس كازنتزاكي	الجحيم	هنري باربوس
انا وهو	البرتو مورافيا	ملربانا	لورك
الانتباه	البرتو مورافيا	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	نساء طراودة	جان بول سارتر
السفير	موريس ويست	تمت اللعبة	« «
قصة حب	اريك سيغال	مسرحيات سارتر	« «
الموت حبا	بيار دوشين	الغثيان	« «
الموت السعيد	البير كامو	دروب الحرية ١/٣	« «
العراب	ماريو بوزو		